مداخلة نظرية

منتديات الحوار التربوي
لحظة تأمل في تفاصيل المشهد

مشهور البطران

قبل أعوام قليلة كان الحديث عن منتديات للمعلمين حلماً يراود الحالمين، شيئاً من اليوتوبيا. اليوم وهنا تنبني اليوتوبيا على الأرض؛ لأن الحلم والإرادة تعانقا على أرضية الممكن.

الآن، لحظة تأمل فريدة في تفاصيل المشهد، لحظة تصيَّرت عبر تفاعلية نشطة وعميقة بين عنصري الأمل والحلم، ومركبي الرغبة والإرادة، وفي بيئة محفزة على الإبداع، وبين أناس نذروا حياتهم للفكر، حتى انبنى المشهد.

لا ندَّعي أن اللوحة اكتملت، ولا نصبو إلى اكتمالها، حتى لا نصل إلى نهاية الطريق ونقف حيارى مكتوفي الأيدي أمام السؤال المضني: وماذا بعد؟ فكمال الأشياء يعني نهايتها، وأجمل الأشياء هي التي تنتظر الإضافات وتحتمل المزيد وتستوعب الفائض. أنا أحب النظر إلى النصف الفارغ من الكأس.

(الآن وهنا) نستطيع أن نسرد حكاية المنتديات، المنتديات التي يظل فضاؤها الرحب؛ الثقافي والتربوي والاجتماعي، في سياق تكاملي يبشر بالأمل والعطاء.

من الآن فصاعداً لن ننظر إلى الخلف، لن ننظر إلى انكساراتنا وهزائمنا، لأنه صارت لنا تجربة وحكاية نتحدث عنها، ونتأملها من حين لآخر، ونعيد سردها في لحظات الحنين الداهمة.

ولأننا لا نستطيع أن نتموقع خارج السياق التاريخي، ولأننا -ونحن الآن بهذه الشاكلة- حصيلة تجارب وأفكار وسلوكيات انبنت عبر صيرورة تاريخية، لأجل كل ذلك لن نتنكر لتاريخنا، ببساطة لأنه تاريخنا ولأنه صنعنا كما نحن الآن.

إذن، من الآن فصاعداً، لن ننظر إلى الخلف إلا سعياً لمقاربة أو مقارنة، وهذا ليس تجاوزاً للتاريخ بقدر ما هو تجاور وتقارب وحوار بين لحظتين، واحدة مضت وأخرى تنبني الآن.

منتديات الحوار التربوي لحظة متصيرة بين زمنين، بين تاريخين لا انقطاع بينهما، الأول ينطوي على: انغلاق، واحدية، تبعية، ارتهان، مركزية، سلطة، تحايل، حيلة، والثاني لحظة تبشر بالانفتاح والتعددية والتكافؤ والديمقراطية.

الآن ومن على هذا المشهد ربما نقف على تخوم تجربة في طور الانبناء، نستشرف من على سطوحها المستقبل، ولأنني أعتقد أن الإنسان يصنع تاريخه فهو كذا يستطيع بلورة صورة لمستقبله، ولذا فعلينا من الآن أن نقرر أين سنذهب في المستقبل.

أين تتموقع منتديات الحوار التربوي ضمن هذا السياق؟ ما كينونتها؟ ما المأمول منها وعليها؟ ما هي مراميها وغاياتها القريبة والبعيدة؟ ما الإنجاز المتحقق حتى اللحظة؟ أين العثرات والمعيقات وسبل تجاوزها؟ أسئلة كثيرة تفيض من نهر التجربة، ولسنا على عجل من أمرنا للإجابة عنها الآن، لنترك هذه الأسئلة كي تجيب عنها التجربة ذاتها.

المنتديات: فكرة، ومضة، التماعة في الذهن، وباعتبار أن الفكر الإنساني برمته هو تجلٍّ للواقع، فإن فكرة المنتديات استولدت من رحم الواقع. الفكرة لم تبقَ أسيرة في الذهن، انطلقت وحلقت في الفضاءات، التقطها من شاء منكم، حاورها وأعادها إلى الواقع مرة أخرى، لكن هذه المرة لتغيير الواقع وإعادة تشكيل هويته من جديد.

المنتديات فضاء للتنوع وساحة للاختلاف

لدى معاينة المشهد نلمس تعددية الرؤى والسبل والفعاليات، وهذا في اعتقادنا أجمل ما في التجربة، لا توجد مقارنات وأفضليات بين تجربة وأخرى، لأن كل تجربة لها ممكناتها وطرائقها ورؤاها المختلفة وظروف انبنائها. إن المقارنة بين منتدى وآخر هي مقارنة بين وردة وأخرى، فلا

يوجد وردة أجمل من أخرى، لكل وردة جمالها الخاص الكامن في لونها ورحيقها وترتيب بتلاتها.

كان يمكن إن ننسخ التجربة ونعممها، وما أسهل ذلك، وفي مثل هذه الحالة يضيع الجمالي والذاتي والصغير، ونحرم أنفسنا من فرصة التجريب والإبداع، والأهم من ذلك تضيع الطريق، إن الطريق الذي يعبر المعلمون مساربها هو بحد ذاته التجربة، وكلما طالت الطريق زادت متعة الكشف والاستكشاف والمراكمة.

لقد أعجبت كثيراً بمقولة لأحد الفلاسفة: "إني لا أحب الصحراء لأنها بلون واحد هو الأصفر وبمكون واحد هو الرمل. "إن منطق الحياة والطبيعة ينبذ الواحدية ويرفض القطب في حين تزدهر الحياة بالتعددية والتنوع والاختلاف. أنا مختلف إذن أنا موجود، وأنا موجود بمدى قدرتي على الاختلاف.

تخيلوا لو أن المنتديات كافة لها الرؤيا والمنهج والفعاليات نفسها، حينها ستؤول إلى نسخ مكرورة ومملولة عن بعضها البعض، ولذا نقول اليوم إننا بحق أمام لوحة سوريالية عديدة الألوان والظلال والأعماق، أو إننا أمام حديقة عامرة بالورود المختلفة، وهنا تكمن روعة الفعل ومذاق الإنجاز.

عبر هذه الصيرورة اختارت منتديات المأسسة والمركزة سبيلاً، وأخرى اختارت الارتجال والعفوية، وثالثة شقت طريقاً ثالثاً بينهما، ومرة أخرى نقول إننا لن نفاضل بين نهج وآخر، لأن لكل منتدى ممكناته ورؤى للفاعلين فيه، لكن الأهم من ذلك أن نترك الفرصة لهذه التجارب والنهوج أن تحاور وتساءل بعضها البعض. تجربة تسائل تجربة، تجربة تحايث أخرى، بهذا السبيل تتحايث التجارب وتتبادل التأثير الإيجابي.

مع ذلك نقول احذروا المأسسة؛ فإنها تخنق الإبداع وتقتل النبوءة، احذروا البيروقراطية فإنها فخ لعين يقتل الصغير والجميل والإنساني والإبداعي. إننا مدعوون دائماً للبحث عن صياغات جديدة توازن بين المركزية القارة والعفوية الفائضة، بين الأرثوذكسية الدوغماتية والانفلات المنسرب.

إننا سنعود اليوم عصراً مع حمولة من الأسئلة وفائض من الانفعالات والانطباعات، وهذه إحدى الغايات، أن نكون دائماً أمام أسئلة جديدة مع أنفسنا ومع الآخر، ولكن من المهم أن تتحول المونولوجات الذاتية إلى ديالوجات في ساحة المنتدى والمدرسة ومع المعلمين، وأن تترجم هذه الأسئلة إلى فعل جديد.

إن كل ما فعلناه وما نفعله الآن وما سنفعله مستقبلاً ما هو إلا محاولة لإيجاد مكان لنا في هذا العالم، مكان خاص بنا يجسد هويتنا ويعيد بناءها وفق أولوياتنا، لكن من الضروري أن ننتبه إلى حقيقة أن يبقى هذا المكان متجاوراً ومكملاً للأماكن الأخرى، فلا وجود لنقطة منعزلة عن سياقها المكاني، إن النقطة بداية ونهاية متصيرة لنقاط أخرى تجتمع معاً لتشكل فضاء المكان، وفي الفضاء متجهات وخطوط ودوائر وأبعاد لا حصر لها، وعلى هذا النحو نقول إن المنتدى فضاء يجاور المجتمع والمدرسة ويرفدهما فكراً وفعلاً، ولكن في الوقت ذاته يسائلهما إدارة وسلطة ومعلمين ومناهج، ومن غير ذلك سيبقى عملنا حفراً في الهواء، إذن ليكن:

- المنتدى معملاً والمدرسة محطاً للحمولة.
- المنتدى ساحة فكر وتفكير والمدرسة ساحة فعل وتجريب.

وإذا ما أردنا الحديث عن منجز يسجل للمنتديات، فعلى الرغم من المشوار القصير، أصبح بالإمكان الحديث عن بناءات صغيرة وجميلة هنا وهناك. إن أي عمل أو فعالية مهما صغرت، هي مراكمة في تجربة المنتديات ونحت في الطريق، وليس بمقدور أيٍّ كان أن يتجاهل حجم الإنجاز المتحقق، ألم يصبح الحوار لغة بين المنخرطين في المنتديات؟ ألم تغدو مساءلة الواقع والنقد وسائل رائجة بين الفاعلين في المنتديات؟ وماذا عن الكتابات والإبداعات الواعدة المبشرة بالأمل؟ ماذا عن التجارب التربوية والدرامية التي شاهدناها في أيام سابقة؟

إذن، ثمة إنجاز نتحدث عنه ونفخر به، ولكي يكون هذا الإنجاز تجربة قابلة للمراكمة للقادمين من بعدنا، فإننا مطالبون بتأصيل هذه التجربة وتأريخها، ولأن التاريخ لا يكون تاريخاً إلا لأنه يوثق، والتوثيق ذاكرة ضد النسيان، التاريخ هو ما قرأناه عن عالم مضى، فكيف إذاً سنتحدث بعد زمن قد يطول عن صيرورة منتدى إذا كانت ذاكرته للنسيان، إننا نتطلع إلى منتديات بذاكرة محصنة ضد النسيان. قال آباؤنا: "حبر ضعيف ولا ذاكرة قوية".

وقال سقراط في حواره مع مينون ما دلالته: "إن الكتاب مقبرة للمعرفة".

فإلى من نحتكم؟ في تقديرنا أن لا تناقض بين القولين. إن الملاحظة الأشد حضوراً لدى معاينة المشهد؛ هي ضعف التوثيق في بعض تجارب المنتديات، وأحياناً غيابه كلياً، فأي عمل يؤول إلى الضياع إذا لم يوثق، ولذا ندعوكم إلى كتابة تجاربكم وتوثيقها بالكلمة والصوت والصورة لتكون مستقبلاً شهادة على زمن مضى.

المنتدى وقلق النهايات

قال زميل ذات يوم: إنه قلق إزاء واحد من المنتديات، لأنه وصل إلى النهاية وحقق إنجازات كبيرة؟ بمعنى لم يبقَ في جعبته مكان لسؤال من قبيل: ماذا بعد؟

ولأنني أثق بحدسه وقدرته على الاستشراف، فقد أخافني لبعض الوقت، واليوم تبددت هذه المخاوف، ولم يعد لها وجود، ببساطة لأننا اكتشفنا أن التجربة تقودنا ولا نقودها، ففي كل يوم تتضح أمكنة وإمكانات جديدة وأفكار وسبل وأشخاص جدد، وتجارب وفعاليات، فلا شيء ينتهي، لأن ما نعتقد أنه على وشك الأفول هو في الواقع يؤسس لبدايات أخرى وتجارب جديدة مع معلمين آخرين.

كلمة أخيرة: أتمنى في يوم المنتديات القادم أن نتمكن من إنجاز كتاب بعنوان "حكايات معلمين" يضم تجاربنا وحكاياتنا المدرسية وقصصاً حدثت معنا أو مع طلابنا.

مشهور البطران
منسق شؤون منتديات الجنوب